السنة الرابعة العدد ٣٢ - صفر ١٣٩٩ هـ - يناير ١٩٧٩ م

الفيصل

مجلة شهرية ثقافية جامعة

ملتقى الابداع العربي والثقافة الانسانية

يوم للرفق بالإنسان

عبد التواب عبد الحي

عالم الثقافة في المغرب العربي

محمد المنصف القصوري

معركة الملود الثلاثة

عبد الكريم غلاب

الزعيم

قصة بقلم ابو العز طي ابو العزا

معركة الملوك الثلاثة

عبدالكريم غلاب

احتفل المغرب واحتفل البرتغال في الصيف الماضي بالذكرى الاربعمائة لمعركة الملوك الثلاثة : احدهما احتفل بذكرى النصر وثانيهما احتفل بذكرى الهزيمة ·

منذ اربعمائة سنة كان هناك عالمان احدهما في طريقه الى القمة وثانيهما في طريقه الى السفح · المتسلقون القمة كانوا في طريقهم يهبون على المتزحلقين الى السفح · وكان الوطن العربي والاسلامي ـ واحسرتاه ـ في طريق السفح ، وكان يلقى المنت من الصاعدين فينحدر تاركا ارضه وحضارته وثقافته ودينه وحيويته ومبادراته لقى في معركة المصير التي كان يخوضها باسلحة غير متكافئة وشعوب يغمرها ضباب الجهل والتخلف والامل المفقود ·

هناك في مشرق الوطن العربي كانت تقوم الامبراطورية العثمانية في محاولة لارث الوطن العربي ، بعد ان اندحرت الدول العربية الاسلامية·

وكانت زهرة النصر الذي حققه صلاح الدين قبل ذلك بازيد من ثلاثة قرون قد ذبلت، بينما ما تزال احفاد الهزيمة في الغرب، الذي انهزم امام صلاح الدين ، ما تزال تؤرث العداوة ضد العرب والمسلمين ·

واذن فقد ظلت الحروب الصليبية قائمة ، ان لم تستطع ان تزهر في المشرق فقد اينعت واثمرت في المغرب العربي والاسلامي · سلمت القدس وسوريا ومصر من احتلال الصليبيين وادت الاندلس وعواصمها التي حمت الاسلام والعروبة ثمانية قرون : قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة ، ادت الثمن من حضارة العرب وعلمهم وثقافتهم ·

ولكن هناك حصن اخر من حصون العروبة والاسلام نقل كل تراث العرب الى الاندلس وشارك في الازدهار الفكري والحضاري في هذه البلاد ، وكان صلة الوصل بين الفكر العربي والحضارة العربية والاسلامية وبين افريقيا واوروبا ، وحمى كل التراث العربي على ضفاف المحيط وفي غرب افريقيا ودافع عن هذا التراث ضد الحملات الصليبية حتى اضاف الى عهد الاسلام والعروبة في الاندلس اربعة قرون اخرى ، هذا الحصن هو المغرب ·

الهدفان الكبيران

والفكر الصليبي الغربي لم يكن ليقنع بالانتصار في الاندلس ، منذ كان يعرف دور المغرب في القفزة العربية الكبرى الى اوروبا الغربية ، ولذلك كان يأمل ان يحطم راس الجسر حتى لا يعود المد العربي الاسلامي الى ارض اوروبا بواسطة رجل اسمر مغربي كطارق بن زياد او بقيادة مغامر عربي يقطن المغرب كعقبة بن نافع ·

راس الجسر اذن كان هدفا لحملة صليبية تنظمها اوروبا الغربية ، ويتدخل فيها الفاتيكان ، وتنفذها دولتان كانتا على صلة مع المغرب العربي : صلة التراث والاحقاد والحروب، هما : اسبانيا والبرتغال·

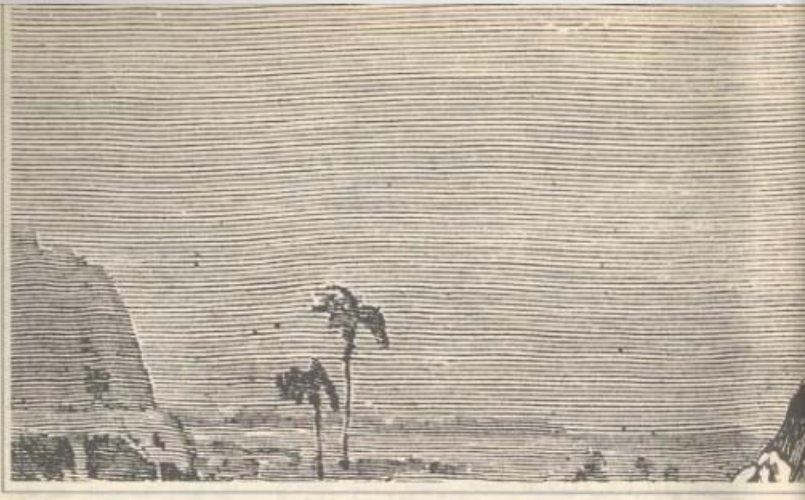

■ حصتين آخر من حصون العروبة والإسلام نقل كل تراث العرب إلى الأندلس

■ الفكر الصليبي الغربي كان يعرف دور المغرب في القفزة العربية الكبرى إلى أوربا الغربية

■ الحملات البرتغالية على الشواطئ المغربية أخذت طابع العنف

في هذه الفترات التي عاصرت نهضة أوروبا وسقوط العالم العربي الاسلامي (سقطت غرناطة آخر معقل للعروبة في الاندلس سنة ١٤٩٢) كانت الدولتان الايبريتان تتنافسان لاحتلال عالم ما وراء المحيط · هدفان اساسيان كانا يدفعان بهما الى المغامرة : الهند · ومن أجل ثروة الهند وتوابل الهند تحلبت أشواق الاوروبيين المغامرين من الانجليز حتى البرتغاليين · وللهند طريق طويلة يجب ان تستأمن للوصول الى الهدف المغري · ولم يكن هذا الطريق انذاك الا الدوران حول افريقيا · ولذلك كان احتلال شواطىء افريقيا هدفا من اهداف المغامرين ·

والهدف الاساسي الثاني هو عالم ما وراء بحر الظلمات : أمريكا التي تدعى اليوم باللاتينية · منذ ذلك التاريخ كان التسابق بين اسبانيا والبرتغال على احتلال امريكا والاستفادة من خيراتها ·

والصراع كان بين دولتين كل منهما تعتبر نفسها أينة شرعية للكنيسة وحامية من حماة تعاليم البابا · ولذلك قسمت الفاتيكان « العالم الكافر » بين الدولتين المتحمستين للمغامرة ، فكان المغرب من حظ البرتغال وكانت شواطىء تونس والجزائر من حظ اسبانيا · وبدأت الحملات البرتغالية على الشواطىء المغربية تأخذ طابع العنف · كانت البداية من سبتة (المدينة التي لعبت دورا رئيسيا في الفتح العربي وفي نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاندلس والتي ينتسب اليها مئات المفكرين والمثقفين والادباء والفقهاء والتي ما تزال اسيرة الاحتلال الاسباني الى الان) واحتلال البرتغاليين لسبتة (التي انتهت الى أيدي الاسبانيين بعد ذلك) شجع البرتغاليين على الانسياح على الشواطىء المغربية · في القرن الافريقي الثاني المقابل لجبل طارق هناك طنجة التي لا يفصلها عن أوربا الا عشرة وبضعة أميال · جوهرة اخرى يجب ان توضع في التاج البرتغالي · وكان ان احتلها البرتغاليون ولابد ان يسيروا مع الشواطىء المغربية الاطلسية ليحققوا بذلك الهدفين الكبيرين معا : ضرب المغرب والانتقام منه ، وبناء القواعد العسكرية في دورانهم حول افريقيا للوصول الى الهند · احتلوا اذن مدن « اصيلة » و « البريجة الجديدة » ثم « اسفي » ثم « اكادير » ثم « بوجدور » وبعض موانيء وادي الذهب في الصحراء المغربية ، وانطلقوا بعد ذلك في الشواطىء الافريقية ·

تاريخ واحد مشترك

المغرب اذن كان يؤدي الثمن ، ثمن المحافظة على العروبة والاسلام ·

والمغرب كان يؤدي الثمن ، ثمن انقاذ مصر والشام وفلسطين من أيدي الصليبيين ·

والمغرب كان يؤدي الثمن ، ثمن مساهمته الفعالة في نقل الاسلام والعروبة الى الاندلس ·

ومن ثم لم يكن هناك تاريخ المشرق وتاريخ المغرب وانما كان هناك تاريخ واحد مشترك ، كل من الجناحين يقوم

فيه بالدور المنوط به وفي الوقت المحدد له . كما ان المواجهة لم تكن مع خصمين مختلفين ، وانما كانت مع خصم واحد عنيد تمثل ، ومازال يتمثل ، في أوربا التي اعتبرت نفسها حامية المسيحية ، واعتبرت من ضرورات حماية المسيحية القضاء على عالم الاسلام في المشرق ـ اثناء الحروب الصليبية المعروفة ـ وفي المغرب ـ اثناء الحروب الصليبية التي يجهلها الكثيرون من سوء الحظ .

المغرب بين نارين

ولم يقف المغرب موقفا سلبيا من هذه الحملات الاستعمارية فقد كان يواجه البرتغاليين في كل مركز يغتارونه ، ويكفي ان نعرف ان مدينة طنجة تعرضت للغزو عدة مرات ، ولكنها سلمت بفضل نضال شعب المغرب وتضحيات بنيه . ومعظم الشواطىء التي احتلها البرتغال كان المغرب يحررها في اولى الفرص التي تسنح له . ولم يستطع البرتغال ان يتسلل الى الداخل فلم يضع قدمه على اي اقليم باستثناء بعض المراكز في الشواطىء الاطلسية . وهذه ميزة نشهدها في تاريخ المغرب القديم والمتوسط . الرومان انفسهم ، وقد دانت لهم الدنيا المعروفة آنذاك ، لم يستطيعوا ان يتغلغلوا داخل المغرب رغم احتلالهم لبعض الشواطىء، فقد كان قلب المغرب مقبرة لابطالهم الذين مجدهم التاريخ .

ولكن المغرب كان في وضع حرج اثناء هذه المعركة الطويلة النفس .

كان هناك خصم اخر بتاجزه الخصومة في حدوده الشرقية وبحاول ان ينقض عليه ، في الوقت الذي كان خصمه الالد يواجهه على الشواطىء الغربية.

التاريخ يعيد نفسه : المغرب مشغول بتحرير ارضه والدفاع عن نفسه ضد الغزو الاجنبي . واخوانه في الشرق يناجزونه العداء .

كان هناك الاتراك العثمانيون ، وقد مدوا نفوذهم على الوطن العربي كله ووصلوا الى حدود المغرب الشرقية فاصطدموا بعلامة ، قد ، يحملها المناضلون المغاربة . وقد قام الجيش التركي بهجوم من الجزائر التي دخلت الامبراطورية العثمانية ، على المغرب بقيادة حسن بن خير الدين باشا ، وقاوم الجيش المغربي فانهزم الاتراك وتبعهم الجيش المغربي حتى احتل تلمسان .

كان هذا في اواسط القرن السادس عشر .

كان المغرب اذن بين نارين

وفي وسط النارين نشبت معركة الملوك الثلاثة .

المتوكل يتآمر

خيل للبرتغاليين انهم يستطيعون ان يتجاوزوا الشواطىء الى قلب المغرب . وخيل اليهم ان الفرصة قد حانت لضم المغرب الى تاج الامبراطورية التي يطمحون الى بنائها في مراكز مهمة من افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية . وعلى انقاض العالم الذي يسير الى السفح يجب ان يصعد البرتغال الى القمة . هناك منافسة قوية مع المتطلعين الى بناء الامبراطوريات : اسبانيا وانكلترا وهولندا ، والامبراطورية الاسلامية في الشرق : تركيا العثمانية . وظن الملك الشاب سباستيان ، (ولي الملك في سن الرابعة عشرة) ان القدر ادخره ليفتح الدنيا في وجه شعبه، وليبدأ بالمغرب الذي كان لبلاده معه تراث . فالمغرب هو الذي جعل من البرتغال جزءا من البلاد العربية الاسلامية قرونا طويلة في التاريخ .

هناك فرصة اخرى انتهزها البرتغال ليجهز على المغرب تتمثل في العداء الذي استحكم بين المغرب والعثمانيين الطامعين في ضم المغرب الى امبراطوريتهم . ثم الخلاف الذي نشب بين الاقرباء المتنافسين على الملك في المغرب على عهد الدولة السعدية .

كان في مقدمتهم محمد بن عبد الله المتوكل . وقد تحالف مع البرتغاليين، واستسلم لهم خوفا من العثمانيين الذين قضوا على جده الملك محمد الشيخ واحتزوا رأسه ليعلق في احدى قلاعهم بالقسطنطينية .

وكانت الشخصية الثانية هي عبد الملك المطالب بعرش أبيه الذي وليه أخوه فترة من زمن . والذي كان يرى في استسلام ابن اخيه المتوكل للبرتغاليين عارا مي جبين شعبه العربي بالمغرب وفي جبين امته الاسلامية . وقد كان على صلة طيبة

بالاتراك العثمانيين . فقد زار القسطنطينية واستطاع ان يكتسب ثقة الاتراك ومساعدتهم . كان يدعمه في مطالبته بالعرش اخوه احمد (الذهبي) الذي سيصبح فيما بعد اقوى شخصية ملكية عرفها المغرب وافريقيا في القرن السادس عشر .

طارد عبد الملك ابن اخيه المتوكل حتى انتصر عليه بين فاس ومراكش وسلمت له البلاد بعد معارك استنزف فيها المغرب . ولجأ (المتوكل) المنهزم الى اشبونه عاصمة البرتغال يطلب العون والمدد من الطامعين في بلاده .

وكانت هي الفرصة التي ينتظرونها .

لا ادري ما اذا كان «المتوكل» قد شعر بوزر الخيانة التي ارتكبها في التآمر ضد بلاده مع العدو التقليدي ولكن الذي سجله التاريخ ان شعب المغرب شعر اشد ما يكون الشعور بالعار ، وهو يرى حاكما ، بل ملكا يلجأ الى الطامعين في البلاد يستنجد به ، ويتآمر معه ليعود الى عرش لم يكن ليقبله ، بعد ان اساء السيرة والتجأ الى الخيانة .

اهتبل سباستيان الفرصة وصمم على ان يغزو المغرب ليصبح الملك المتوج على الارض التي لم يستطع اباطرة الرومان ان يحلوا مفارقهم بتاجها .

وفكر في ان تكون طريقه الى قلب المغرب من طنجة المحتلة نظرا لان ميناءها يستطيع ان يستقبل السفن التي تحمل الغذاء والعتاد ، وقد بدأت الحروب تعتمد على الدفع الثقيل والسلاح الضخم .

خبر الموضوع عسكريا بعد ان اقام في المدينة الصليبية فاكتشف ان الهضاب التي تفصلها عن قلب المغرب ستجعل تنقل الجنود والعتاد صعبا ، وعاد الى بلاده يدرس خطة جديدة

تمكنه من المغرب دون صعوبة تذكر واستجاب له (المتوكل) الخائن قبل ان يرفع علم الهزيمة النهائية فسلمه ثغر « اصيلة » .

وفي اشبونة كان الاحتفال العظيم ببداية الحملة التي ستنتصر فيها اوروبا على افريقيا والعالم المسيحي على العالم الاسلامي . وكان الاحتفال بالحرب على غرار الحملات المقدسة التي عرفتها القرون الوسطى .

مدينة اشبونة تشهد عرسا دينيا كبيرا ، باركة البابا ، وتسلم فيه قواد الجيش اعلامهم ، وتليت الصلوات والدعوات ورفعت اعلام الزينة الملونة . وانطلقت الحملة في مظاهر شعبية رائعة الى ميناء قادس على الشواطىء الاسبانية . ومن قادس الى طنجة .

ومن طنجة برا الى اصيلة لتكون هي منطلق الحملة الكبرى على سهول المغرب لتفصل العاصمتين التاريخيتين : فاس ، وهي مركز الدولة انذاك ، ومراكش ، وهي المدينة التي تمد المغرب بالمجاهدين وتعتبر باب الصحراء وقلب المغرب .

وفي فاس كان عبد الملك يستعد في حيوية ونضال ويهيىء المعركة ديلوماسيا وعسكريا وشعبيا .

وكان وراء عبد الملك شعب ما يزال يشعر بهزيمة العرب في الاندلس . وكان يحس بان النكبة تقترب من المغرب وان الهزيمة التي لقيها العرب في الاندلس يمكن ان تتكرر في المغرب اذا ما تخلى الشعب عن نضاله ومساهمته الفعالة .

ولم يكن شعور الشعب تلقائيا . فقد كانت النخبة المثقفة وراء هذا الاحساس العارم باقتراب المأساة . ولذلك كانت التعبئة الشعبية التي اعتمدت على المشاعر الوطنية والدينية معا في عضد التعبئة العسكرية التي استقل فيها الملك السعدي (عبد الملك) واخوه احمد كل مواهبهما ومعرفتهما باستراتيجية الحرب واستخدام السلاح الجديد .

موعد مع المعركة

خرج المثقفون وعلماء الدين الى الشارع يطوفون الارجاء ويجمعون المجاهدين من القبائل . وكانوا جميعا على موعد مع بلاط المعركة في وادي المخازن بالقرب من مدينة القصر الكبير التي تشرف على السهل الكبير: سهل الغرب الذي يعتبر اغنى منطقة فلاحية ، وهو السهل الذي ينتهي الى فاس في قلب المغرب ، وهي عاصمة الدولة انذاك ، وينتهي الى الشاطىء الكبير الذي يبدأ بالمدينتين المهمتين في التاريخ : سلا والرباط .

العرس الذي شهده المغرب لا يقل عن العرس الذي شهده البرتغال . لم يكن فيه صليان ولا رهبان ، وانما كانت فيه الدعوة الى الجهاد تتردد في السهول والجبال والوديان . وكان المصحف بيد الداعين الى الجهاد ، يفهم المجاهدون عن طريقه ان الوطن العربي الاسلامي مهدد بالمصير الذي لقيته الاندلس وان ينقذه غير الجهاد والتضحية والفداء .

وقف الفريقان في استعدادهما الكامل تفصل بينهما مسافة ما تزال بعيدة في عرف حروب ذلك الزمان .

واختار عبد الملك موقعه في الوادي وحاول سباستيان ان يختار موقعه على الشاطىء تسنده البواخر والامدادات البحرية . وكانت جملة قصيرة في رسالة بعث بها عبد الملك الى خصمه المتأهب للمعركة فاصلة في استراتيجية الحرب : « **لقد قطعت اليك ست عشرة مرحلة فاقطع الى مرحلة واحدة** » .

ولم يكن سباستيان الشجاع الذي خرج من بلاده ليخوض حتى النصر معركة خطيرة لينهزم امام التحدي . ولم يكن ليستمع الى نصيحة الخيانة التي قدمها (المتوكل) وهو يحذره :

« **لتبق قريبا من البحر فقد يسهل الالتجاء اليه اذا لم يكن النصر** »

تقدم سباستيان وعبر الجسر على وادي المخازن .

وكانت الغلطة القاصمة ...

فقد اصبح موقعه بين النهرين . وسبقته المبادرة المغربية حينما نسف احمد المنصور قائد الجيش (وسيكتب له ان يخرج من الحرب ملكا على

حين دفع المغرب ثمن إنقاذ مصر والشام وفلسطين من أيدي الصليبيين

كانت معركة المصير صعبة .. انتصر فيها المغرب

للعروبة والإسلام

يمكن ان ندعوها معركة الست ساعات بدأت بالمدفعية القوية . وانطلاق المدفعية المغربية حطم وحده معنوية الجيش الغازي الذي لم يكن قد فاق بعد من زلزال نسف الجسر الذي عبره في الليلة الفاصلة بين ثالث ورابع اغسطس ١٥٧٨ . واقترب الجيشان من بعضهما فسكتت المدافع البعيدة المدى وعاد القتال الى التحام رهيب بوسائل الحرب القديمة . انطلق الجيش المغربي يدافع عن مصيره ومصير العروبة والاسلام في المنطقة التي تعهدت بحماية العروبة والاسلام في غرب القارة الافريقية . سقط أبناء الامراء والنبلاء وقادة الجيش الذين جاءوا الى المغرب ليعودوا الى بلادهم تملو هاماتهم تيجان النصر واضطربت صفوف الغزاة فاجهز عليهم جيش المجاهدين . ولم يكن امامهم اختيار بين الموت ، او الارتماء بين احضان الموج في نهر الخازن بثيابه الجارف ، او السقوط في الاسر .

المغرب) الجسر الذي عبره الجيش البرتغالي .

وكانت المواجهة في موقع استراتيجي مهم اختاره الجيش المغربي بعد أن قطع خط الرجعة على خصمه المتردد .

مائة الف او تزيد من الفرسان والراجلين والرماة تتقابل في المعركة: جنود محترفون ومتطوعون يبحث كل منهم عن خصمه .

مئات المدافع من الجانبين . والمدفع هو السلاح القوي الفتاك الذي عرفته حروب القرن السادس عشر . وكان الجيش المغربي يتقن استعمال هذا السلاح الجديد ، بل كان يصدر بعض المواد الاولية للمتفجرات الى أوربا (ملح البارود مثلا) وكان يستورد في مقابلها مدافع وقنابل .

كان صباحا قائظا زفرت فيه جهنم زفرتها الملتهبة في الوادي الذي تحرسه الاكام والمرتفعات .

مسير العروبة والاسلام

ست ساعات .

كان اختيار المصير صعبا . فكلها سبيل للموت .

وترك الجيش الغازي الاختيار بين يدي الجيش المنتصر فلم يسلم من « الكارثة » ـ كما يدعوها المؤرخون الغربيون ـ الا القليل الذين سقطوا اسرى في يد الجيش المنتصر .

واختفى الثلاثة الذين قادوا المعركة:

ـ عبد الملك السعدي الملك القائد الذي قبل التحدي وكسب الرهان . كان في خبائه يلفظ النفس الاخير والمعركة على اشدها . ويظهر ان « ضربة شمس » قضت على حياته فمات شهيدا ـ او هو مات مسموما ليترك مصير المعركة والبلاد من بعده في يد اخيه احمد المنصور (الذهبي) ولم يكن احد يدري انه على فراش الموت . فقد كان احمد يدخل ويخرج منه ليوزع أوامر الملك . وبذلك لم يضطرب جيش المغرب لوفاة القائد ، ولم يتشجع جيش العدو باختفاء الملك .

سباستيان : الشاب الطموح الذي غرق في نهر وادي الخازن وهو يحلم بتاج المغرب .

المتوكل : الملك الخائن الذي عزله الشعب واصدر العلماء فتوى بخيانته فبرهن على ذلك يوم المعركة المشهودة وهو يقاتل في صفوف الغزاة . وكانت النهاية ان غيبته امواج النهر فكان شريكا للقتلى من صفوف الاعداء .

وقد عرفه التاريخ بعد ذلك بلقب (المسلوخ) .

ذلك ان المجاهدين بحثوا عن جثته بين الجثث التي لفظها تيار النهر فسلخوا جلده وحشوه تبنا وعرضوه في الساحة حتى يكون درسا لكل من تحدثه نفسه بالخيانة . كما بحثوا عن جثة سباستيان ، وقدموها للبرتغال دون فداء .

انتهت المعركة بعد ست ساعات . ولم يكن النصر فيها لجيش المغرب ورديف المجاهدين المتطوعين فحسب وانما كان النصر للعروبة والاسلام . فقد عادت أوروبا الى حجمها الحقيقي واصبحت تقيم الوزن الكبير للمغرب الذي ظل قلبا ينبض في عالم الاسلام والعروبة .

وكان التعبير عن هذا التقدير على لسان الوفود التي جاءت الى المغرب تهنيء الملك الجديد : احمد المنصور ، بالنصر . كانت الوفود تمثل الشرق والغرب ، من مختلف دول اوربا ، حتى من البرتغال واسبانيا ، وكانت على استعداد قبل ست ساعات فقط، ان تحول اتجاهها الى اشبونة لتهنيء البرتغال بالنصر على المغرب ، وتقدم الهدايا للملك الشاب الذي حقق حلم الصليبيين . وجاءت الوفود ايضا من القسطنطينية والجزائر وتونس ومصر . وسلم المغرب نهائيا من طموح الدولة العثمانية فقد عدلت بعد معركة وادي المخازن عن الحلم الذي كان يراودها بضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية بعد ان ضمت الجزائر . ولكنها وقفت هناك على حدود (للامغنية) .

وانطلق المغرب ينظم نفسه فينشر الاسلام في افريقيا حتى وصلت جيوشه بعد ذلك الى نهر النيجر . واصبح امبراطورية قوية غنية صرفت عنه طمع الطامعين من الشمال ، وسلمت ثغوره من غزوات الانجليز والبرتغاليين والاسبانيين ، وسلمت حدوده الشرقية من مناجزة الاتراك. وربط علاقات دبلوماسية مع الدول التي كان لها مركز دولي انذاك .

وكان الفضل في ذلك لمعركة وادي المخازن .

الى عهد قريب كان البرتغاليون يحجون كل سنة في الرابع من اغسطس الى وادي المخازن يشهدون تاريخ الهزيمة ويندبون او يترحمون على القتلى . واستجابت الادارة الاستعمارية الاسبانية (حينما كانت تحتل شمال المغرب قبل الاستقلال الذي تم سنة ١٩٥٦) استجابت لرغبة هذه الوفود فبنت محطة للقطار في مكان الموقعة حتى توفر على الحجاج متاعب السفر .

وانصرف المغرب عن الاحتفال بالذكرى حتى استقل فدعا زعيم التحرير علال الفاسي رحمه الله الى الاحتفال بيوم النصر ، وكان ينظم مهرجانا وطنيا في يوم الذكرى ، حتى تبنت الدولة الاحتفال بذكرى النصر بمناسبة مرور اربعمائة سنة على معركة الملوك الثلاثة .

اين دماغ الشجرة ؟!

محمد عفيفي

امامي حيث اجلس في الحديقة شجرة ماتجة ، ومع انني اراها كل يوم الا انني نظرت اليها اليوم فشعرت باستغراب شديد . ليس ذلك لان شيئا قد تغير فيها ، وانما لانني سمعت فجأة صوتا يسألني بقوله اين دماغ تلك الشجرة ؟؟

اذ تامل اعضاء الشجرة تسرح خيالي الى الجذور الضاربة في جوف التربة السمراء ، من ناحيا لكي تثبت الشجرة في الارض ومن ناحية اخرى لكي تمتص العصائر والاملاح وتضخها الى اعلى ، من الجذع الغشبي الكبير المتفرع ، العامل بالقنوات المعدة لاستقبال ذلك السيل من العصائر .

والعصائر تصل في النهاية الى اوراق الشجرة الخضراء ، والاوراق كما يقولون هي رئة الشجرة ، تمتص الهواء فتحتفظ منه بثاني اوكسيد الكربون وتنفث الاوكسجين . هي تعطيني الاوكسجين وانا ارد اليها ثاني اوكسيد الكربون ، تعاون لطيف بين الانسان والشجرة ، يا ليت يجيء ـ الانسان ـ بينه وبين زوجته !

وبين الاوراق تتدلى من الغصون كرات كثيرة بين خضراء وصفراء هي ثمار المانجة ، التي هي كما افهم حبوب اللقاح اللازمة لخلق اشجار جديدة . اذ تنضج تلك الثمار وتتساقط على الارض ، ومن جوفها تنبت جذور تضرب في التربة وتمتص الغذاء ، تمهيدا لبروز عود صغير اخضر لا يلبث ان يتحول ـ بعد الزمن اللازم ـ الى ذلك الجذع الخشبي المتفرع المحمل بأوراق وثمار الشجرة الجديدة .

كل عضو من اعضاء الشجرة له وظيفة معينة يؤديها ، تماما كجسم الانسان الذي فيه رئتان للتنفس ومعدة للهضم ، وساقان للسير ويدان للتعامل مع الاشياء (بالتربيت عليها احيانا وبتحديها في معظم الاحيان !) . ومن هنا يبرز ذلك السؤال المحير : اين دماغ الشجرة ؟

ان الانسان يسير على ساقيه سعيا وراء الطعام ، فاذا وجده اكله ، فاذا اكله هضمته معدته واعطاه وزوعته على بلايين الخلايا المكونة لجسمه ، وطول الوقت يشتغل قلبه ورئتاه وكبده وغدده المختلفة لكي تجعل من الممكن تحقيق تلك المعجزة .

فاذا اكل الانسان وشبع وصلت الى معاقه رسالة تقول له انه قد حان الوقت له لكي يرتاح . اي ان الدماغ هي المصب النهائي لفلاسفة وظائف اعضاء الجسم ، فيها يشعر الانسان بالذلة او بالالم ، بالسعادة او بالشقاء . اي ان الاعضاء كلها مسخرة لخدمة ذلك العضو الرئيسي في الانسان وهو دماغه . (واذا راعينا نوعية بعض الاكلة فاننا نجد ان هذا ظلم بين واقع على سائر الاعضاء !) .

وما بين جذور الشجرة وجذعها وغصونها واوراقها ولمارها ، وكل هذه مجرد اعضاء ، السائل مرة اخرى اين تصب وظائف كل هذه الاعضاء ؟؟ واين دماغ الشجرة ؟!